

الانترنت والتجربة الخائلية. - دراسة في التغيرات الاتصالية -

د: حورية بولعوي
جامعة جيجل

ملخص:

تشهد المجتمعات المعاصرة تحولات عميقة تمثل بدورها مؤشرات لانتقال فعلي لحضارة جديدة تركز في أساسها على ارتباطها بتكنولوجيا الاتصال التي تتمثل أهمها في شبكة الانترنت، هذه الأخيرة تتميز بتعددية الوظائف وتنوع استخدام وتفاعلية الاتصال، مما يجعل المشترك فيها مسافرا رقميا وملاحا إلكترونيا مدركا لآليات سفره إلا أنه قد لا يكون مدركا للتغيرات التي تحدث على مستوى بنياته المعرفية ومرجعياته الثقافية وفكرة الاتصال في حد ذاتها، فالاتساع الجسدي والتخديري وتعدد الفضاء المرئي الذي تتيحه الانترنت تسمح بولوج واقع اتصالي جديد علق عليه بول فالوري قائلا بأن " الإنسان بدأ يصبح هو الآخر ويردّ على نفسه ليعود فيصبح هو نفسه".
فما هي طبيعة التجربة الاتصالية التي يتم إعلانها لإنسان اليوم عبر هذه الشبكة ضمن ما يسمى بالاتصال الخائلي؟ وأية تجربة يمكن أن يخوضها هذا الإنسان عبر اتصال تفاعلي جزيئي وعبر عمليات نحت صوتي وتسارع زمني؟ وما هي الإضافات التي يمكن أن يقدمها للتواصل الإنساني؟
الكلمات المفتاحية: الانترنت – الواقع الخائلي – الاتصال الخائلي.

ABSTRACT:

Modern societies live in deep changes which represent criteria to a modern civilization that includes terminology in the form of modernization and renewal to essential changeable for



From this starting point, in the last decade the notion of new media was dominated. This notion, represent the new form of media that is related to communication technology. The latter is characterized by multi- functions and interactive communication all this make the computer user as a traveler and an electronic navigator, recognizing the ways of this travel. But, he may not be recognizable of the change which occur at the level of his know ledge and his cultural references, and the idea of communication itself.

The body extension, the anesthetic and diversity of visual space, helped by this technology. It permits the inclusion of a new communicative fact Paul Valory has commented that “The human being started to be the other one and replies to himself to comeback to himself”.

So, what is the nature of communicative trial that is announced to man nowadays through this technology called Virtual Communication? Every trial can be done by this man through interactive molecular communication and rush time? What are the additions that can be introduced to human communication?

Keywords:

Internet - Virtual reality - Virtual communication.

مقدمة:

تعد شبكة الانترنت أحد أهم أشكال تكنولوجيا الإعلام والاتصال التي تطورت نتيجة اندماج ثلاث متغيرات أساسية وهي: السمعي البصري التكنولوجي الرقمية، والاتصال عن بعد، لتفجر عهدا جديدا يتسم بالتدفق الواسع والحر للمعلومات، هذا التدفق أكسب شبكة الإنترنت مجموعة من الخصائص لخصها "مانوال كاستالس" Manuel kastells¹ في: الانفتاح، الدينامية، والقدرة على الابتكار، هذه الثلاثية تزداد رسوخا يوما بعد يوم، ذلك أن الإنترنت اتسمت بالتطور والتغير والتجديد سواء من حيث البناء أو الوظائف أو الأبعاد، حيث تحولت في فترة وجيزة من أداة للحصول على المعلومات إلى فضاء خائلي متعدد الاستخدام.

إن الخصوصية التي تتمتع بها الانترنت لا تكمن في درجة انتشارها فحسب وإنما في بنيتها وفي كونها مؤلفة من رقمية المؤشر والمعالجة المعلوماتية للإشارة، فبعد فقدان مرجعية التقنية التشابهية وتجاوز سلبية المتلقي فقط وازدياد كفاياته وقدرته على الاستطالة الجغرافية والزمنية، نشأت تغيرات اتصالية محسوسة يمكن أن نطلق عليها اسم الاتصال الخائلي.

وهذا المقال هو محاولة لتسليط الضوء ولو بالبسيط على انعكاسات التجربة الخائلية التي تتيحها الانترنت على عملية الاتصال أو ما يسمى بالاتصال الخائلي، فما هو هذا النوع من الاتصال؟ وما هي التغيرات الاتصالية التي يحملها انطلاقا من المميزات التي يتصف بها؟

ولمعالجة هذا الموضوع والإجابة عن التساؤلات المطروحة قسمنا هذه الورقة إلى ثلاث نقاط أساسية وهي:

أولا: الاعتبارات المنهجية للدراسة.

ثانيا: الانترنت وإشكالية الواقع الخائلي .

ثالثا: التغيرات الاتصالية في ظل التجربة الخائلية الانترنتية..الاتصال الخائلي نموذج.

أولاً: اعتبارات منهجية لا بد منها:

قبل الغوص في الموضوع وحيثياته كان من المستوجب مناقشة التفاصيل المنهجية اللازمة لسير البحث، والتي تروم في مجملها الوصول إلى صياغة علمية مما من شأنها أن تؤسس للمعلومات المعروضة والمتوصل إليها.

1- إشكالية الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى البحث في التجربة الخائلية التي تتيحها الانترنت وكذا الأشكال الاتصالية التي تفرزها انطلاقاً مما يتوفر من التحليلات العلمية والبحوث العملية للمهتمين بالموضوع، مستعرضة الركائز التي يستند إليها هذا الاتصال (الانترنت)، وما تقدمه من خصائص اتصالية وتقنية ، وبالتالي البحث في هذه التجربة الجديدة والإمكانات التي يمكن أن تتيحها، هل تستهدف التغيير إلى ما هو أفضل؟ هل هي في خدمة الاتصال الإنساني؟ هل ستكون تكاملية الأفق أم تنافرية الرؤية؟ وماذا يمكن أن يستفيد الإنسان في إطارها؟ هل يمكن أن تحسن وتنبهي التواصل الحقيقي لديهم؟

2- أهداف الدراسة:

- البحث في تجليات الانترنت وعرض أهم خدماتها التي يركز عليها الاتصال الخائلي.
- مساءلة مفهوم الاتصال الخائلي انطلاقاً من عرض تصوري للواقع الخائلي في علاقته بشبكة الانترنت.
- استجلاء حقيقة الاتصال الخائلي في علاقته بالاتصال الإنساني، ومن ثمة معرفة حدود الفصل والوصل والاستفادة.
- تقديم رؤية استشرافية لدور الاتصال الخائلي في ظل الحياة الإنسانية الحالية المعقدة.

3- منهج الدراسة:

تم الاعتماد في هذا المقال على منهجية مركبة في مقارنة الموضوع، إذ اعتمد الأسلوب الوصفي الاستقصائي التحليلي الذي يقوم على ممارسة التعمق المعرفي في المفاهيم، وذلك عبر تتبع مساراتها التاريخية وتجلياتها، كما تم الأخذ بالمنهج الاستنباطي التحليلي

والتركيب في مناقشة بعض زوايا الموضوع. وهذه الدراسة هي مجرد مدخل معرفي كون ظاهرة الاتصال الخائلي لازالت في مرحلة التشكل على الأقل في مجتمعنا.

ثانيا: الانترنت واشكالية الواقع الخائلي:

ارتكز تسارع نسق التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال على ثلاثة تحولات رئيسية هي رقمنة الصورة والصوت والنصوص، والضغط الرقمي والقوة المتزايدة للإلكترونيات الدقيقة المتمثلة في السرعة المتصاعدة في إجراء العمليات الحسابية مع تناقص حجم المكونات الإلكترونية، ولقد مكنت هذه الاختراعات التكنولوجية من التعويض التدريجي للتجهيزات التناظرية بأنظمة رقمية فتحت المجال أمام ظهور الميكرو إعلامية التي انتشر استخدامها في الثمانينات من القرن الماضي على نطاق واسع، وفي هذا السياق اعتمد تطوير الرقمنة وما تلاه من تطبيقات على التطور المذهل للمكونات الإلكترونية التي تزايدت قدرتها على الحساب بشكل تصاعدي حسب القانون المعروف بقانون مور Moor ، كما أتاح هذا التطور زيادة موازية لطاقة خزن المعلومات وتصغير أحجام الحواسيب " النممة"²، وقد سمحت النممة و الرقمنة بالتقاء السمي البصري مع الميكرو إعلامية والاتصالات عن بعد، التي تمثل أهم مؤشرات التطور التكنولوجي الحالي، فشهدت هذه الفترة ظهور الهواتف الذكية، اللوحات الرقمية والحواسيب المختلفة، وبالشروع في ربط الحواسيب فيما بينها في إطار ما يسمى بالشبكة، أفاق العالم وهو مرتبط ببعضه ببعض عن طريق الانترنت التي تختصر كل الاختراعات التكنولوجية الأخرى وتزيد عنها بما تتيحه من خدمات وتطبيقات متنوعة.

1- الانترنت: الخصائص والأبعاد:

يتفق الكثير من الباحثين على أن شبكة الانترنت هي أكبر شبكة معلومات في العالم، تقوم بربط مئات الآلاف من الشبكات المحلية والملايين من أجهزة الحاسب الآلي ومئات الملايين من المستخدمين المنتشرين في معظم دول العالم³، وتتضمن الانترنت مجموعة مختلفة من الأشكال الاتصالية هي: من طرف واحد إلى طرف آخر، ومن طرف إلى عدة أطراف، ومن عدة أطراف إلى عدة أطراف أخرى، وبناء على هذا استطاعت شبكة الانترنت أن تجمع الخصائص التي تتميز بها الوسائل الاتصالية الإعلامية التقليدية،

فقد تم دمج العناصر المميزة للوسائل المرئية، الصور المتحركة والألوان.. إلخ وتتميز شبكة الانترنت عموماً بـ:

■ **التفاعلية:** وهي تعني رجوع الصدى وقد عرف ديرلاك Durlak التفاعلية بأنها: " العملية التي يتوافر فيها التحكم في وسيلة الاتصال من خلال قدرة المتلقي على إدارة عملية الاتصال عن بعد"، وقد ساعدت التفاعلية على تخصيص المواقع الإلكترونية صفحات للاهتمامات المشتركة من خلال الصفحات لتبادل الخبرات والأنشطة وغيرها⁴.

وتتيح الانترنت درجة عالية من التفاعلية بما توفره من درجة عالية من الفورية والمباشرة في رجوع الصدى، وتنقسم التفاعلية في الانترنت إلى ثلاثة أشكال هي:

- التفاعلية الإرشادية: وهي التي ترشد المستخدم إلى الصفحة التالية أو العودة إلى أعلى .. وهكذا.

- التفاعلية الوظيفية: وهي تلك التي تتم عبر البريد المباشر والروابط ومجموعات الحوار.

- التفاعلية التكميلية: وهي تلك التي تقدم غرف المحادثة، وتتيح لموقع الانترنت أن يكيف نفسه لسلوك المتصفح الزائر⁵.

■ **سهولة الاستخدام:** تعد خاصية سهولة الاستخدام أحد أهم عوامل تفضيل مستخدمي الانترنت وزيادة إقبال الجماهير على هذه الشبكة، حيث لا تتطلب الإفادة من الشبكة بذل جهد جسدي وعقلي كبير لفهم أو استيعاب ما تتوافر عليه من مواد، خاصة مع استخدام بعض البرمجيات التي تسهم في تسهيل الموضوعات المعقدة مثل الوسائط المتعددة وغيرها.

■ **الوسائط المتعددة:** تستهدف الوسائط المتعددة المساعدة في إيضاح المعاني وتقوم على دمج النصوص والرسوم والصور الثابتة والمتحركة بالأصوات والتأثيرات المختلفة لتوصيل الأفكار والمعاني، وأسهمت الوسائط المتعددة بتوفير بيئة متميزة تساعد مستخدمي الانترنت على اكتساب المهارات والخبرات والمعرفة، كما ساعدت الجمهور للتفاعل مع النصوص الجامدة بإضافة الصور والفيديوهات .. إلخ

- **سرعة الحصول على المعلومات:** توصف شبكة الانترنت بالطريق الإلكتروني السريع للمعلومات نتيجة التقنيات المتوفرة فيها، والتي مكنت العالم أجمع من الوصول إلى المعلومات المتاحة على الشبكة في الوقت نفسه، وفي كل يوم تظهر من البرامج والنظم الاتصالية ما يزيد من سرعة تداول المعلومات على الشبكة مثل تقنية حزمة الانترنت فائقة السرعة، وفي المجال الإعلامي سعت الكثير من المواقع الإخبارية لتفعيل خاصية سهولة الحصول على المعلومات التي توفرها الانترنت، حيث طورت العديد من الصحف الالكترونية نظامها التحريري ليوافق السرعة المذهلة التي تتمتع بها الشبكة⁶.
- **التزامنية واللاتزامنية:** التزامنية تعني توافق وقت إرسال الرسالة مع قراءتها، بينما تحيل اللاتزامنية إلى إمكانية إرسال الرسائل واستقبالها في وقت مناسب للفرد المستخدم، ولا تتطلب من كل المشاركين أن يستخدموا النظام في الوقت نفسه .
وبهذا فالانترنت تحقق أشكال عدة من الاتصال وهي:
 - اتصال متزامن: من فرد إلى آخر أو آخرين ويمكن تنظيمه حول موضوع محدد ويدخل في تطبيقات هذا النظام مختلف أنواع برامج المحادثة وأشكالها المختلفة مثل برامج الدردشة.
 - اتصال غير متزامن: من مجموعة إلى مجموعة من الأفراد مثل المجموعات الإخبارية.
 - اتصال غير متزامن: وذلك حينما يرغب المستقبل في الحصول على المعلومة وذلك باستخدام خدمات الواب الدولي، بروتوكول نقل الملفات، ويكون الاتصال هنا من مجموعة أفراد إلى فرد، أو من فرد إلى فرد آخر إلى مجموعة، عندما يكون في حاجة للبحث عن موقع للحصول على المعلومات⁷.
- وبالنظر إلى إمكانات شبكة الانترنت تحول العالم إلى مشهد متشابك، أخرج الإنسان من نطاقه المحدود بفعل انكماش الكرة الأرضية وتقلصها في الزمان والمكان حتى توصف بالقرية العالمية، وبالتالي زاد وعي الإنسان بمسؤولياته إلى درجة قصوى، وقد أفرزت هذه الحالة كما يرى مارشال ماكلوهان إلى بروز ما يمكن تسميته بـ "عصر القلق"، ذلك

أن الثورة التكنولوجية الفورية الجديدة باتت تجبر الفرد على الالتزام والمشاركة بعمق⁸ وذلك عن طريق ما يسمى بالاتصال الخائلي.

2- الانترنت..العالم الخائلي الجديد :

يتردد كثيرا على الألسنة هذه الأيام مفهوم " الخائلية " من جماعات خائلية ومؤسسات خائلية ومدن خائلية ومعامل خائلية واتصال خائلي، ونعت الخائلي " Virtual " نعني به هنا كل ما يحاكي الواقع أو يناظره لدرجة يخيّل لنا معها أنه يناظر الواقع، ونعني به أيضا ما يتجاوز الواقع لكنه على الرغم من تجاوزه يؤخذ مأخذ الواقعي ويتعامل معه على أنه في حكم الفعلي القائم، في ظل هذا التعريف فصورة المرأة خائلية لتناظرها مع الواقع، والأفلام السينمائية التي تحاكي الواقع هي نوع من الخائلية، والأسطورة المتجاوزة للواقع هي أيضا خائلية ما دامت رسخت في أذهان من يتداولونها، والاتصال المتجاوز للواقع هو أيضا خائلي، وبناءا على هذا فلكل عصر خائليته يمارس فيها الإنسان قهر الطبيعة ويحلم بإرادة لا تتحقق له في دنيا الواقع، وتنوع الخائليات وتعدد مصادرها بين خائليات من صنع السحر أو وليدة خيال الشعراء، تلك التي من صنع طوباويات الايدولوجيا أو أحلام التكنولوجيا⁹، والخائلية التي يعنى بها هذا البحث هي خائلية التكنولوجيا، فبفعل أشكالها الحديثة أحدثت انقلابات راديكالية في مفاهيم الزمان والمكان والفضاء الاجتماعي وخاصة منها شبكة الانترنت، وفي إطار هذا ظهر مفهوم الاتصال الخائلي الذي شكل ثورة في ميدان البحث في الإعلام والاتصال، وبالنظر إلى الأبحاث الموجودة والمقاربات الموضوعية والتطورات التي لم تحسم بعد فإن هذا المفهوم لازال سيشهد الكثير من التعليقات ووجهات النظر في المستقبل.

ويمكن النظر للواقع الخائلي على أنه "بيئة اصطناعية لممارسة الخبرات بصورة أقرب ما تكون إلى تلك في دنيا الواقع، وللواقع الخائلي وضعه الغامض من حيث المعنى والذي يمثل في ذات الوقت شيئا خائليا مصمما ومنتحلا أو إدراكا حسيا واقعا تم الحصول عليه بطرائق اصطناعية، أو علاقة بين أطراف بعيدة لها هويات اصطناعية أو أشياء أخرى كثيرة في سياقات تقانية وسيكولوجية وفنية شديدة الاختلاف، والحقيقة أن الواقع الخائلي هو فائض أو إضافة في كل شيء¹⁰.

وبالرغم من شيوع مصطلح الواقع الخائلي فمن النادر أن نجد مستخدميه يجمعون على نفس المعنى للمصطلح، وربما يكون التعريف الأقرب للصواب هو أن الواقع الخائلي عالم يصنعه الحاسب الآلي، يمكن للإنسان التفاعل معه آنيا بنفس الأسلوب الذي يتفاعل معه العالم الحقيقي، والثابت أن هذا الواقع يعتمد على البعد الثالث أو التجسيم حيث يلعب هذا الأخير دورا رئيسيا في تقنية الواقع الخائلي، حيث تحيل المخرجات إلى نماذج شبيهة بالواقع وتجعل المتعامل معها يندمج تماما كأنما هو مغموس في بيئة الواقع ذاته، وفي هذه التقنية تشترك حواس الإنسان كي يمر بخبرة تشبه الواقع بدرجة كبيرة لكنها ليست حقيقية¹¹.

والواقع الخائلي هو محاكاة للواقع الإنساني تتم عن طريق الكمبيوتر أو بعض التقنيات الأخرى بحيث تتطابق مع الحياة الواقعية وهي ناتجة عن طريق تمازج الروح والعقل وليس عن طريق الجسم بطبيعة الحال¹²، ويذهب البعض إلى النظر للخائلية على أنها بيئة اصطناعية لممارسة الخبرات بصورة أقرب ما تكون إلى الصورة الموجودة في دنيا الواقع، ذلك أن هذا الواقع يتيح بيئة مشابهة للحقيقة حيث يعتمد على تقديم صورة مشابهة للواقع في الأماكن التي لا يمكن للإنسان الوصول إليها أو إنشاؤها.

وقد طرح مصطلح الواقع الخائلي للتداول الدكتور نبيل علي أبرز منظري المعلوماتية في العالم العربي وذلك في كتابه الثاني المعنون بالثقافة العربية وعصر المعلومات، بعدما كان المصطلح الرائج هو الواقع الافتراضي، ويعد هذا الكتاب ثورة في تحليل الثقافة العربية في علاقتها بالتكنولوجيا والثورة المعلوماتية، وفي ذات السياق يعتقد نبيل علي أن هذا المصطلح هو الأنسب والأكثر اتساقا مع اللغة العربية لقابليته للاشتقاق ناهيك عن دقته، وبالمقابل يترجم آخرون هذا المصطلح بالواقع الوهمي أو الظاهري أو الحقيقة الافتراضية وغيرها¹³.

وقد تولدت فكرة الواقع الافتراضي على يد السينيماتوغرافية مورتان هليغ Morton Heilig سنة 1960، فيما طورها فيما بعد إيفان ستارلند Ivan Sutherland وقد تبنت القوات العسكرية الأمريكية الفكرة سنة 1966 ومولتها، فيما قامت وكالة الناسا NASA بتحويلها إلى واقع يمكن الاستفادة منه¹⁴.

وبالنظر إلى التطورات العلمية التي شهدتها هذا الحقل توسعت فكرة الواقع الخائلي، ولهذا نجد هذا الأخير يتوسع في أحيان ويضيق في أخرى، وفي إطار تقسيم العوالم الافتراضية نشرت مجلة "Future Science" نتائج بحث أعده باحثون أمريكيون قسموا خلاله " العوالم الخائلية " إلى ثلاثة فئات:

- **واقع خائلي يخلق حالة من التواجد المكتمل:** وفيه يتم إيهام المستخدم بأنه لا وجود للحاسوب والعالم الحقيقي فلا يرى أو يشعر بأي شيء سوى هذا العالم المصنوع الذي يوجده الحاسوب ويتصرف داخله بحرية تامة، ويتم رؤية هذا العالم المصنوع بواسطة خوذة خاصة أو نظارة إلكترونية تتصل بالحاسوب كما يرتدي المستخدم في يديه قفازات كوسيلة إضافية لتجسيد الواقع الخائلي، وذلك من خلال ملامسة الأشياء التي يتم تجسيدها في هذا الواقع ويظن أنها موجودة.
- **واقع خائلي محدود الوظيفة والمكان:** ويستخدم هذا النظام لمحاكاة الأنظمة التي يصعب التواجد بقربها أو بداخلها وتجسيد التفاعل معها لتعظيم فرص تفهم أدائها لوظائفها، وينصب الاهتمام هنا على محاكاة خواص أو جزئيات بعينها في الواقع الحي الحقيقي، ومن أمثلة هذا الواقع محاكاة المباني والسيارات، الطائرات...إلخ.
- **العالم الخائلي المبسط:** حيث تكون رؤية العالم الخائلي والتعامل معه عن طريق شاشة الحاسب الآلي كمواقع الانترنت¹⁵.

إذن فالانترنت جزء من الواقع الخائلي الجديد إذ يحيل المستخدم إلى فضاء يخيل له معه أنه نفس الفضاء الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل مع أفرادهِ وينجز مهامه ويمارس نشاطاته المختلفة ضمنه.

وتجدر الإشارة أن الواقع الخائلي قد أدخل العالم في حقبة جديدة تتميز بالحرة والانعقاد من القهر القسري الذي يمارسه الواقع الحقيقي علينا، ولو أن هذه الفكرة قد عارضها رينغولد Rheingold الذي يرى أن هذا الواقع هو تثبيت لفكرة السيطرة على الشيء منتزعة منه إمكانية أن يكون مختلفا عما هو عليه، إذ يعطي هذا العالم في المقابل الوهم بأن إبراز الاصطناعي من شأنه أن يحل محل التوق للانعقاد من الواقع القسري، إن الواقعية القسرية لممارسي الواقع الخائلي حسبه تروج من موقع تبعية لأحدث أنواع الواقعية التي تتبناها الشركات التي تسعى من خلال استثماراتها في

مختبرات البحث حول الواقع الخائلي، إلى تثبيت هيمنتها على عالم الاقتصاد ومن خلاله عالم الأشياء.

وفي ذات المنحى يذهب ريفيلي Revelli إلى أن الواقع الخائلي قد أدخل مجددا إلى الواقع التوق إلى واقع آخر ولكن على شكل انتحال ومحاكاة ساخرة، فمع الواقع الخائلي يوضع من جديد داخل الواقع ذلك البعد المخادع الذي تم تركه على هوامش العملية الإنتاجية الفوردية (نسبة إلى فورد الأمريكية)، لكي يصبح بالضبط كما العلاقات غير الشككية للوقت الحر التي دخلت حقل الإنتاج تابعا هو الآخر لهيمنة الإنتاج، إضافة إلى التأثير الذي يمارسه الإدراك الحسي في إمكانية خلق "عالم جديد" "خلف ذلك العالم المتقاسم بصورة قسرية"¹⁶.

ومهما اختلفت وجهات النظر فإن الثابت أن تكنولوجيا الاتصال الحديثة ومن بينها الانترنت وما أوجدته من واقع جديد قد ساهمت في حدوث تغيرات جوهرية في بنية العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الغربية، إذ غدت هذه الوسائل تشكل عصب الحياة وأضحت تتحكم بمجريات الأمور والشؤون الاجتماعية والثقافية والسياسية¹⁷، ذلك أن تنوع الحياة في هذه المجتمعات قد أدى إلى اتساع أساليب التشارك وتغيير أسس الاجتماع الإنساني بتغيير قيم ومفاهيم المادة والمكان والزمان، فضلا عن البحث عن طرق جديدة تغذي التجربة الإنسانية لكن بطرق أقل تكلفة وزمن وأكثر فاعلية، وهذا ما جعل البعض "المتطور" يلجأ للواقع الخائلي الذي توفره الانترنت وذلك لممارسة عملية الاتصال وباقي تفاصيل الحياة اليومية.

ثالثا: التغيرات الاتصالية في ظل التجربة الخائلية الانترنتية..الاتصال الخائلي نموذج:

1- الاتصال الخائلي..الإضافات الاتصالية الجديدة:

يعد الواقع الخائلي الذي أنتجته الانترنت الأكثر إيحائية مقارنة بالخائلية التي توفرها الوسائل الجديدة الأخرى (التلفزة- الراديو..)، ففيه يبرز الاقتران بين الصورة والحاسوب بين مخيال الوسائل القديمة والتلاعب التفاعلي التي توفره التكنولوجيا الحديثة، ففي الواقع الخائلي يجتمع الأفضل في التقانية والتجربة على الأشكال

التجديدية للاتصال، حيث تتلاقى التطورات الأكثر تقدما في البحث حول تقنيات البث، وحول البرمجة المعلوماتية، وحول الوجه لوجه الإنسان- الآلة (تعليمات ضوئية، نقاط بصرية، أيقونة المشترك) وحول التفاعلية البيئة- المشترك.

يعد الواقع الخائلي –إذن- عقدة غاية في الأهمية للملاحظة تكامل استراتيجيات مختلفة للاتصال المعاصر (الاتصال الخائلي)، ومع ذلك فإن اختيار الواقع الخائلي كمدخل امتيازي لتجربة الانترنت الاتصالية هو مفارقة بحتة لأن التجارب العملية حول هذه الظاهرة الاتصالية قليلة كما يقول بريكن الذي يعد الباحث الأهم حول التأثيرات التقنية للواقع الخائلي¹⁸

■ **الاتصال الخائلي وإشكالية الفضاء:** في الاتصال العادي كان محور التفكير ينصب في الفضاء الذي يمارس فيه الاتصال كشرط أساسي لقيام العملية، أما في الاتصال الخائلي فمشكلة الفضاء لم تعد مطروحة بتاتا، وفي ذات السياق أصبحت المشكلة المطروحة حول الاتصال كفضاء بحد ذاته، وفي هذا المنحى يقول فيدالي Vidali أن تجربة الاتصال الخائلي لم تعد تطبيقا عمليا فحسب بل هي أيضا مكان، وهذا ما ينطبق مع أبحاث فويرستر Foerster الذي يرى أن هناك تطابقا بين الفضاء والتجربة الاتصالية الخائلية والتي انطلقت منها أبحاث كروغر Krueger ، وفي شرح هذه النقطة يرى الراشدون في الاتصال عادة كبث للمعلومات من نقطة إلى أخرى، في حين يعتقد الصغار أنهم إذا استطاعوا التحدث إلى أحد يجب أن يكونوا في ذات المكان، بعبارة أخرى يستند مفهوم الإنسان للمكان على المقدرة الاتصالية ويحدد المكان من قبل المعلومة المتوافرة أنيا لشخصين في حالة اتصال، وهذا يعني أن الفضاء ليس المسافة التي يقفز الاتصال فوقها ويمحوها وإنما هو المكان الذي يبنيه الاتصال ويحطمه، فالاتصال يبني الفضاء ولكن لكي يحدث ذلك يجب أن يكون الإنسان قد ثبط انتظاره الاتصالي من جهة وضاعفه من جهة أخرى.

وتثبيط الانتظار الاتصالي متعلق بالقضاء على سطوة المكان بالمفهوم الفيزيائي والقضاء على إشكالية الزمن من جهة وهذا ما يؤدي إلى مضاعفة الأفعال الاتصالية من جهة أخرى، وهذا لا يتأتى بالشكل الجيد والمطلوب إلا في ضوء تكنولوجيا الاتصال ومنها الانترنت فهي وحدها القادرة على التثبيط الاتصالي ومضاعفته في نفس الوقت وذلك

بما تمتلكه من إمكانات وخصائص، وهذا الشكل فالاتصال الخائلي المتعلق بهذه التكنولوجيا متطابق تماما مع الفضاء كفكرة ذلك أن الإنسان فيه يتقاسم مع الآخرين فكرة الاتصال بشكل مقوى بصورة استثنائية، فلا أحد في الماضي كان متقاطعا بهذه الكثافة مع إنسان آخر متصل وليس فقط الكمية بل نوعية الأفعال الاتصالية الممكنة أيضا وبالتالي ما يمكن أن يقدمه من فرص، والاتصال الخائلي بهذا هو الفضاء على عكس أشكال الاتصال العادي الذي يفصل تماما بين الاتصال كفعل والفضاء كمكان¹⁹.

■ **الاتصال الخائلي والتفاعلية:** ركزت عديد البحوث والنظريات في العلوم الإنسانية على التفاعل كشرط أساسي لاستكمال العملية الاتصالية، حيث ارتبط مفهوم الاتصال بمفهوم التفاعل عند عدد كبير من الباحثين على اختلاف اتجاهاتهم واهتماماتهم العلمية، فشومسكي Chomsky مثلا يعتبر أن الاتصال هو عملية تفاعل بين طرفين لأنه لا يقف عند حد تبادل المعلومات، فحتى تنجح العملية لا بد من أن يكون هنالك اتصال حقيقي بين الباحث والمستقبل كما يجب أن تتوفر فرصة رجع الصدى وتبادل الآراء، يقول شومسكي في هذا الإطار: "إن الرسالة التي يمكن لناسرها أن يبعثها عن طريق الكلام شفاهيا أو سمعيا أو مرثيا لا بد أن تعقبها رسالة رجع الصدى حتى تتم عملية الاتصال بشكل كامل".

هذه المكانة المهمة التي يولها شومسكي لعنصر التفاعل في إنجاح العملية الاتصالية نجدها أيضا عند علماء الاجتماع، حيث نقطي أثرها في أبحاث شارلز كولي Coley وجون ديوي Dewey وإلى جانب هذا نجد المقاربة النسقية التي ظهرت منذ العشرينات من القرن الماضي قد ركزت على البعد التفاعلي للاتصال، حيث وضع أبراهام مولز Moles نظريته "إيكولوجيا الاتصال" تحت مظلة شانون وتحليلاته، وتعني هذه الأخيرة "علم التفاعلات بين كائنات مختلفة داخل حقل ما"، وهي عملية تتضمن فرعين أساسيين يشكل الفرد وحدة الفرع الأول الأساسية ويهتم بصيغ التفاعل الاتصالي للفرد ضمن الفضاء الزمني، ويحيل الفرع الثاني إلى: "تنظيم طرائق التعاقد بين الأفراد وتفعيل الحيز العقلاني والتحكم الذهني الكوني الذي تمارسه قنوات كثيرة من خلال قوة وحضور كثافة رسائلها وتخزين الرسائل في فضاءات الذاكرة كأرشيف المكتبات".

وقد تدعم مبدأ التفاعلية بفضل الانترنت ومن ثمة فالاتصال الخائلي يتمتع بإمكانية رجوع صدى فورية وسهلة الانجاز، وهذا ما جعل العلاقة الدائرية أكثر عمقا وأكبر تعقيدا، ففي الاتصال الخائلي إمكانية التفاعل تختلف جذريا عما اقترحه لاسويل لأن مهمة المرسل الخائلي أصبحت لا تقتصر فحسب على إعطاء رأيه حول ما قرأ أو شاهد أو سمع، وإنما أصبح يقدم ويعدل ويحذف ويضيف التفاصيل التي يريدها²⁰.

إذن فالاتصال الخائلي أحدث تغييرات بنوية في خريطة الاتصال وفسح المجال – على وفق ذلك- للقيام بتعددية اتصالية خائلية لا حدود لها، مما أصبح ينظر للاتصال حسبه إلى صيرورة تفاوض موضوعها المعنى تشارك فيها المجموعات التشاور والتناقش، ويذهب بيارليفي إلى أن انبثاق المنظومة الالكترونية التفاعلية يعني (نهاية الجمهور) وولادة (الذات الجماعية)، وهذا هو الحل البديل حسب رأيه لمجتمع المشهد ولا يهم حسبه إن كانت المضامين المتداولة علامات أو أيقونات أو رموز²¹.

■ **الاتصال الخائلي والإدراك الحسي:** يوفر الاتصال الخائلي الفضاء الذي يجعل المشتركين يتبادلون المعاني بشكل محسوس وإبداعي مع التشويشات الاتصالية التي يتلقونها، وبالتالي فالاتصال الخائلي ليس اتصالا أخرس تسقط عليه ظلال ممثلي الاتصال ولكنه فعلا يمثل محور الأفعال الاتصالية التي ينجزها المشترك، فالإحساس الذي يرافق مشاهدة الصورة في موقع المتلقي يصبح إحساسا بالوجود في مكان ويرافق هذا الانتقال إجابة انفعالية، ومع توحيد الصيرورات الرمزية يخلق شعورا بالكلية وبازدياد القوة ويتم الانتقال فيها من مشتركين خارجيين إلى مشتركين داخليين ومن ملاحظين كما في الاتصال العادي إلى ممارسين للتجربة، وبهذا يصبح المشارك يحس بالاحتواء الذي يرى فيه بريكن بأنه لم يتحقق أبدا في الاتصال التقليدي، إذ لم يصل إلى هذه النقطة من الانخراط والتطابق مع الشيء والانتماء التشاركي كملاحظ وملاحظ²².

■ **الاتصال الخائلي وشخصنة الاتصال:** يعتبر كوشو أن الشخص الذي يستخدم الوسائل الجديدة ضمن الاتصال الخائلي هو السيد الحقيقي للصورة الرقمية، حيث يتلاعب المشترك بها ويتحاور معها وهي لا توجد إلا بقدر ما يتم استدعاؤها من جديد واستجوابها وإعادة بنائها ومعالجتها.

■ **الاتصال الخائلي والقلق الاتصالي:** في ظل ثورة الاتصال يجد المتصل الخائلي نفسه يعيش عالما يدور حوله دون أن يتحرك هو من مكانه، إنه يمثل مركزا مؤقتا فقط يجسد الموقف الاتصالي الذي يتميز بالتغيير الشديد والسريع والذي يجبر المشترك على تغيير كفاياته الاتصالية في كل مرة، فتغيير محطة الاتصال تحتم على المتصل التكيف معها ومن ثمة يصعب على المشترك الخائلي الاستقرار ضمن نمط اتصالي معين، مما تجعله دائما يطرح السؤال أين أنا؟ من أنا؟ مع من أنا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ وبالتالي كيف أتصل.

■ **الاتصال الخائلي والسياق الاجتماعي:** لا يفتقر الاتصال الخائلي للسياق الاجتماعي كما يعتقد البعض، فهذا السياق موجود بقوة وحاضر بكل جوانبه غير أنه يتمظهر ليس عبر وساطة عناصر انفعالية كما الاتصال الشخصي والمباشر وإنما عبر وساطة رمزية في معظمها وغنية في تقسيماتها الفئوية ونمطياتها، والحقيقة أن السياق لا يتشكل فقط من خلال تبادل المعلومات بين أشخاص موجودين في بيئة فيزيائية واحدة، بل يتشكل أيضا وخاصة عبر مرجعيات ومصادر معرفية وثقافية تسمح للأفراد بأن يتفاهموا فيما بينهم على الأقل ضمن الخطوط العريضة حول المغزى الذي يضيفونه على المعلومات التي يتبادلونها، ذلك أن الاتصال ليس مجرد تمرير معلومات بين أشخاص منعزلين وإنما يكمن في بناء فضاء متقاسم أو أرضية مشتركة من المعتقدات والتوقعات والقيم تسمح للأفراد بفهم النوايا المتبادلة وتفسير الأوضاع بصورة معترف بها ومكودة اجتماعيا، هذا كله يعني أن الاتصال الخائلي يحتوي سياقات معرفية وثقافية وكفايات مميزة لمجتمع ما، وأن الواقع الذي يوجده ليس مخادعا ولكنه واقع آخر مختلف يدخل حقبة الاتصال الخائلي مؤثرا ومتأثرا بجميع وسائل الاتصال التي سبقته²³.

■ **الاتصال الخائلي وتوسيع المعرفة:** خصص فولتير للتخيل مقالة في موسوعته يعترف له فيها بدوره الجوهرية في الفعل المعرفي، لأنه من خلال تمثيل بصري تشارك فيه كل الحواس يصبح من الممكن التفكير وفهم الأفكار المجردة.

من الملاحظ أن التخيل قد عانى من وضع غير راسخ في الفكر الحديث باحثا عن ضمانه في المستوى المعرفي تكلف الحواس بوظيفة ليست فقط وصولية ولكن أيضا إحصائية،

ومع ذلك فإن العلاقة بين الشعورية والعقلية مثلت في جميع الأحوال عقدة لم تحل بعد في الثقافة الإنسانية الحديثة ، هل تتوافر بشكل ما إمكانية إعادة وضعهما في الاتصال؟ يعتقد أغامبين أن هذه الإمكانية كانت موجودة في العصور القديمة، فالتخيل الذي ينبثق اليوم من المعرفة كعنصر غير واقعي كان بالنسبة للقدماء الوسيط الأمثل للمعرفة، غير أنه بعيدا عن أن يكون شيئا غير واقعي فإن العالم الخيالي يمتلك واقعه بامتلاء بين العالم الشعوري والعالم العقلي، بل إنه يعد شرطا للاتصال فيما بينهما أي شرطا للمعرفة.

والآن فالتخيل أخذ يكتسب في ثقافة الانترنت مكانة كان قد فقدتها أو نسيتها داخل الفنون المرئية، فقط في الاتصال الخائلي يلاحظ أن التقاطع بين التكنولوجيا وجسمانية الإدراك بين رقمنة الصورة وإبداعية تحولها بين العقل والشعور، يمثل إعادة اعتبار للتخيل كوسيط بين العقل والحواس وكأرضية مشتركة بين المعرفة والتجربة الجسمانية الفريدة والخاصة²⁴.

وعموما يمكن رصد أهم مميزات الاتصال الخائلي في:

- ترتبط العملية الاتصالية بكيف وبأي قدر يمكنني أن أتصل، يعني هذا أن الاتصال يتوقف على قرار القائم بالاتصال في ذلك والطريقة التي يتم بها ذلك بالقراءة أو الكتابة أو المشاركة الجسمانية. إلخ.
 - يتميز الاتصال الخائلي بتمثله كبناء مغلق، بمعنى أنه يحدث في إطار نظام معين تتحدد فيه شروط الاتصال انطلاقا من التوقعات التي يبنمها عن الإشباع المحققة.
 - نموذج التلقي في الاتصال الخائلي يعتبر مثاليا فلا أحد من المشاركين يعرف أن الطرف الآخر قد تلقى الرسالة المرسله إليه أم لا.
- مما تم عرضه يلاحظ أن الاتصال الخائلي تجاوز المنتظر من الاتصال الإنساني العادي بإقرار مواضع النقص فيه وإيجاد البدائل والمكملات اللازمة لها.

2- الاتصال الخائلي والاتصال الإنساني:

يدور الجدل اليوم حول إمكانات الاتصال الخائلي وأوجه الاستفادة منه وهل هو مصدر قلق بالنسبة للاتصال الإنساني أم لا. إن المتأمل للاتصال الخائلي يجده في الحقيقة يتطابق مع الاتصال الإنساني في الأسس التي يقوم عليها فهو يتوفر على:

- الموقف الاتصالي.

- وجود أطراف التواصل.

- وجود الوسائط اللفظية وغير اللفظية.

وخاصة في الاتصال الخائلي غير التناظري (نص وصورة ثابتة)، فالتواصل الشعوري الذي يميز الاتصال الخائلي في أشكاله المتطورة الحالية المعتمدة على المشاهدة والمشاركة الفاعلة، جعل هذا الأخير يحاكي الواقعية التي يمارسها الشخص الخائلي في الحيز الفراغي بدل الشخص الحقيقي في الحيز الطبيعي⁽²⁵⁾.

وإذا حاولنا مقارنة التواصل الإنساني بالتواصل الخائلي في حالة عدم معرفة الطرف الآخر فإننا نجد أن هناك تطابقا مع مراحل التواصل الإنساني والتي تتمثل في⁽²⁶⁾:

- التعارف: التصنيف والتقدير وتبادل عبارات المجاملة والآراء العفوية الغير مخططة وسبر أغوار الطرف الآخر.
- التفاوض والمساومة: تحديد نوع العلاقة ومكاسمها.
- التوافق والانسجام والالتزام: يقتنع كل طرف بالآخر من حيث المزايا والقيمة ويتوقف البحث عن بدائل أخرى.
- الإعلان عن العلاقة وتعزيزها وتثبيتها: تأكيد نمط العلاقة وتحقيقها عن طريق التواصل.

ويساهم الاتصال الخائلي في تعزيز الاتصال الإنساني من خلال التدريب على مواقف الاتصال في حالة الخجل مثلا. أو في حالة عدم القيام بالتجربة الاتصالية في ذلك الموقف لعدم توفره مؤقتا، هذا لا يعني أنه لا توجد آثار سلبية له ولكن مع حسن

الاستخدام يمكن الاستفادة أكثر من هذا الاتصال، ويمكن تلخيص الفرص التي يضيفها هذا الأخير لمنظومة الاتصال الإنساني في النقاط الآتية:

- توسيع دائرة الاتصال على اعتبار أن الاتصال الخائلي هو امتداد للتواصل الطبيعي وليس مناقض أو بديل له.
- الاتصال الخائلي أسرع في حالة أهمية هذا العامل.
- عدم خضوع الاتصال الخائلي في كثير من الأحيان للرقابة يفسح المجال لحرية تعبير أكثر ومشاركة فعالة في الأفكار والمعلومات.
- الحصول على فرص للتدرب على مواقف ستكون في المستقبل تحتاج إلى اتصال حقيقي.
- الاتصال الخائلي يسمح بالاتصال المجاني أو الشبه مجاني على عكس أشكال الاتصال التقليدية التي قد تتطلب على الأقل مصاريف تنقل وبروتوكولات أخرى.

وبالنظر إلى ما سبق يتبين أن الاتصال الخائلي قد أضاف فرص جديدة يصعب مقارنتها بالاتصال التقليدي، ذلك أن الاتصال الخائلي يعمل على إبراز الفرد لجوانب مفرطة في النشاط والفعالية نابعة من شخصية قد لا يستطيع أن يبرزها أو يظهرها في الاتصال الشخصي المباشر مع الآخرين، بحكم القيود المفروضة على الفرد في هذا النوع من الاتصال وكذا حواجز الزمان والمكان..إلخ.

خاتمة:

ما يمكن قوله في نهاية هذا العرض أن الانترنت قد أفرزت واقعا جديدا ساهم بدوره في بروز شكل جديد من الاتصال سمي بالاتصال الخائلي، هذا الأخير شكل استمرارية وطفرة حقيقية في الاتصال الإنساني مع التأكيد على الاستخدام العقلاني له، كما تبقى آفاق البحث مفتوحة لمعرفة وتحديد أكثر لآلياته وأبعاده وخصائصه، كما ننوه بضرورة إدماجه ضمن السياق الاتصالي في حياتنا اليومية مبعدين في ذلك أوهام البحث في الواقع الموجود وغير الموجود واللاواقع وسياقات الواقع، مهتمين أكثر بإيجابياته خاصة في التشارك الاتصالي والتعليم والبحث العلمي.

الهوامش:

1. شوقي العلوي، رهانات الإنترنت، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2006، ص 18.
2. شوقي العلوي، المرجع نفسه، ص ص 34-36.
3. عبد الحميد بن حمد الزومان، شبكة الانترنت ماهي؟ وكيفية الارتباط بها، مجلة العلوم والتقنية، العدد 64، جوان 2002، ص 5.
4. شاشة فارس، اقتصاديات وسائل الإعلام الإلكترونية. دراسة تأصيلية لاقتصاد صحف الانترنت، فعاليات المؤتمر العلمي الأول حول وسائل الإعلام والمجتمع نوفمبر 2010، منشورات جامعة بسكرة، 2010، ص ص 120-121.
5. رضا عبد الواحد أمين، الصحافة الإلكترونية، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2007، ص ص 73-74.
6. شاشة فارس، مرجع سابق، ص ص 121-122.
7. ماجد سالم تريان، الانترنت والصحافة الإلكترونية.. رؤية مستقبلية، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2008، ص ص 80-81.
8. جواهر الجموسي، المجتمع الافتراضي، تونس: بؤفا برنت، 2007، ص 180.
9. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات.. رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، سلسلة عالم المعرفة 265، الكويت، منشورات المجلس الوطني للثقافة والآداب، 2001، ص 103.
10. المرجع نفسه، ص 106.
11. فريال مهنا، علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2002، ص 483.
12. Yang Gao, Virtual Reality, [On line], [1/11/2013]. Available at:
[http://web2.uwindsor.ca/courses/cs/aggarwal/cs60520/Se
minarMaterial/VirtualReality.ppt](http://web2.uwindsor.ca/courses/cs/aggarwal/cs60520/Se
minarMaterial/VirtualReality.ppt)
13. نهى محمد عبد المقصود، الواقع الافتراضي.. المنهج التكنولوجي، [على الخط المباشر]. تمت الزيارة يوم: 2013/10/30. متاح على الرابط الالكتروني الآتي:
<http://media.kenanaonline.com/files/0020/20165>
14. Chris Constantine, Virtual Reality, [On line], [1/11/2013]. Available at:



www.cs.ucf.edu/~eurip/cot4810/Virtual%20Reality.ppt

15. وجدي محمد بركات، توفيق عبد المنعم بركات، الأطفال والعوالم الافتراضية.. آمال وأخطار، [على الخط المباشر]. تمت الزيارة يوم: 2013/10/30 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:

http://uqu.edu.sa/files2/tiny_mce/plugins/filemanager/files/4300340/stu.1.doc

16. فريال مهنا، مرجع سابق، ص ص 488-489.

17. بوزيان راضية، دور وسائل الإعلام في تكوين الرأي العام وتشكيل العالم الجديد. مقارنة تحليلية من خلال المنظور العولمي، مداخلة ضمن المؤتمر العلمي الأول " وسائل الإعلام والمجتمع "، بسكرة 28-29 نوفمبر، 2010، منشورات جامعة بسكرة ، 2010، ص 258.

18. فريال مهنا، مرجع سابق، ص 464.

19. المرجع نفسه، ص ص 472-473.

20. ثريا السنوسي، الاتصال التفاعلي والشباب في تونس، [على الخط المباشر]. تمت الزيارة يوم: 2013/10/30 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:

[http://eu.globalstar.com/en/doubleminutes/?gclid=CMXh1-](http://eu.globalstar.com/en/doubleminutes/?gclid=CMXh1-Tz8LoCFUcV3godykUAXw)

[Tz8LoCFUcV3godykUAXw](http://eu.globalstar.com/en/doubleminutes/?gclid=CMXh1-Tz8LoCFUcV3godykUAXw)

21. موسى جواد الموسوي وآخرون، الإعلام الجديد.. تطور الأداء والوسيلة والوظيفة، [على الخط المباشر]. تمت الزيارة يوم: 2013/11/04 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:

<http://fr.scribd.com/doc/109248509>

22. فريال مهنا، مرجع سابق، ص 476.

23. المرجع نفسه، 497.

24. نفسه، ص 471.

25. جواهر الجموسي، مرجع سابق، ص 16.

26. رولا الحمصي، إدمان الانترنت عند الشباب وعلاقته بمهارات التواصل الاجتماعي. دراسة ميدانية على عينة من طلاب جامعة دمشق، [على الخط المباشر]. تمت الزيارة يوم :

2012/02/22 . متاح على الرابط الالكتروني الآتي:

[http:// www.aun.edu.eg/conferences/27_9_2009/ConferenceCD_files/.../19.doc](http://www.aun.edu.eg/conferences/27_9_2009/ConferenceCD_files/.../19.doc)